وسوف لايجد مثل هذا التشكك الأساسى أذانا مصغية كثيرة ، وسوف يمكن لباحث معاصر ـ إذا خلصت النية ـ أن يتصور الواجبات الشاقة التى ورثها من آبائه ، ولكنه طرحها جانبا .

كان الأستاذ أمين يتصور حياة اللغة فى إطار تصوره لحياة الإنسان . وحياة الإنسان تقوم على تغير مستمر فى نظام العلاقات ، فهل استطعنا أن ندرس العربية على هذا النحو ؟ وإذا لم يحقق المرء حاجاته اضطر إلى أساليب معروفة من التعويض والإعلاء والتغاضى ، فهل استطعنا أن ندرس المفردات والأساليب دراسة بصير بهذه الملاحظات القريبة ؟

كان الأستاذ أمين فى إطار الاهتمام بالشخصية القومية يتساءل فى اللغة ودراستها أسئلة لاتخطر لنا على بال .

وفى المقدمة التى كتبها صديق قديم رحمه الله هو الدكتور محمد العلائى يفصح عن هذه الجوانب المضمرة فى كتابات الأستاذ أمين ، ويفصح عن حقيقة ـ لا أراها مجرد تعبير عن حب شخصى ـ قائلا لقد كان أمين فى ملاحظته بعض مظاهر اللغة وأساليبها مشغولا بالتقدم والتقهقر الذى يصيب العقل والإرادة فى بعض المجتمعات ، أو كان مشغولا بما يتعرض له المجتمع من اختلاط المعايير وضباب الرؤى ، وكان يريد العثور على كل مظاهر الضباب التى تحيط باستعمالنا للغة وتفهمنا لها .

كان حلم الأستاذ أمين هو أن يدرس بطريقة صابرة « نمو » الكلمات ، أن يدرس ميلاد المعانى ونموها وشيخوختها ، أن ندرس حياة الكلمات فى بعض المستويات باعتبارها تساميا أو تعويضا ، أو تحقيقا لبعض الإمكانات التى لم يتح لها الظهور أو الازدهار فى مستويات ثانية .

ولا أريد أن أختم هذه الملاحظات الكلية دون إشارة عامة تكمل الصورة معتمدا على قدر من الإيجاز والتركيز . . لقد بذل الأستاذ أمين لأول مرة فى تاريخ الثقافة الحديثة جهدا علميا راقيا لدراسة معالم من تاريخ البلاغة ، ومناهج البحث فيها ، ودائرة أبحاثها ، وغايتها ، والاحتفال بالدراسة المقارنة بينها وبين الدراسات الأوروبية التى وقع عليها فى اللغات التى كان يتقنها وهى الإيطالية والألمانية . والحق أن هذا الجانب المقارن مايزال غامضا ، وقد كان أمين الخولى رحمه الله يعبر عن كل فكرة تعبيرا خلاقا مطبوعا بطابعه ، ولم يكن دأبه النقل والاقتباس . كان عقلا حصيفا مفتونا